

الفصل الثالث

مسيحيات الفقراء المضللين

الزخم المؤثر للتغيير الاجتماعي السريع:

حدثت الحركات الثورية للفقراء التي رأسها مسيحيون أو قديسون احياء (ص ٥٣) واستمدت الهامها من نبوءات السبيليين : أو يوحنا ، فيما يتعلق بالأيام الاخيرة ، حدثت بتكرار متزايد منذ نهاية القرن الحادي عشر وما بعده ، وهي لم تحدث على أي حال في كل الفترات أو كل المناطق ، وحتى الآن فيما يتعلق بأوروبا الشمالية ، إنه فقط في وادي الراين يمكن للمرء أن يتحرى تقاليد يبدو أنها غير متحللة للالفية الثورية التي استمرت حتى القرن السادس عشر ، وفي بعض المناطق فيما يعرف الآن ببلجيكا وشمال فرنسا يمكن تتبع مثل هذه التقاليد منذ نهاية القرن الحادي عشر حتى أواسط القرن الرابع عشر، وفي بعض المناطق من جنوب ووسط ألمانيا منذ أواسط القرن الثالث عشر وحتى مرحلة الإصلاح ، التي بعدها يمكن ملاحظة بدايات تقاليدنا في هولندا ووستفاليا

وعلى حواف هيجان أكبر بكثير ، حدث هياج الفسى حول لندن وآخر في بوهيميا ومع استثناء واحد أو اثنين صغيرين ان كل الحركات التي تعنى بها الدراسة الراهنة قامت ضمن هذه الحدود الدقيقة نوعا ما ، مما يدفع المرء إلى السؤال لماذا توجب أن يكون الأمر كذلك ، ومهما كان محفوفا بالمخاطر تتبوع سبب ظاهرة اجتماعية في مجتمع هي نفسها لا يمكن ملاحظتها فيه بشكل مباشر ، إن حادثة الالفية الثورية هنا واضحة جدا ومحدودة سواء في مداها أو في زمانها على أنها بلا أهمية ، إن نظرة مأخوذة من عل

توحي بأن الحالات الاجتماعية التي حدثت فيها انفجارات ثورية الفية كانت في الواقع موحدة بشكل ملحوظ ، وهذا الانطباع يتأكد عندما يقوم المرء بفحص انفجارات خاصة بالتفصيل . والمناطق التي أخذت فيها النبوءات القديمة حول الأيام الأخيرة معان ثورية جديدة ، وقوة ثورية جديدة ، وكانت المناطق المكتظة بالسكان بدرجة خطيرة و المنهمكة في عملية تغيير اقتصادي واجتماعي سريعة ، و مثل هذه الظروف كان لابد أن توجد الآن في منطقة واحدة ، والآن في أخرى لأنه في تلك النواحي كان التطور في أوروبا العصور الوسطى أي شيء إلا أن يكون موحدا (ص ٥٤) وإنما حدثت كانت الحياة تختلف بدرجة كبيرة عن الحياة الزراعية المستقرة التي كانت المعيار على مدى الألف سنة امتداد العصور الوسطى ، ومفيد معرفة نوع هذه الفروق بدقة ، وبالتأكيد لم تكن الحياة التقليدية على الأرض سهلة ، فعلى الرغم من التحسن في التقنيات الزراعية إنها لم تكن بالدرجة التي تبقي الفلاحين في حالة وفرة حتى في الظروف المواتية ، وبالنسبة لمعظم الفلاحين إن الحياة لا بد أنها كانت دائما كفساحا شاقا ، ففي كل قرية كان هناك أعداد من الفلاحين تعيش قرب أو في مستوى ابقاء الرق ، وكان الفائض الزراعي صغيرا جدا ، وكانت المعلومات والاتصالات غير ثابتة حتى أن المحصول السيء كثيرا ما كان يعني مجاعة كبيرة جدا ، ولأجيال كانت أطراف المناطق الكبيرة في شمال ووسط أوروبا تخرّب من قبل الغزاة الشماليين القدامى والمجريين ، ولقرون على أطراف مناطق أوسع بكثير كانت تحدث الاضطرابات بسبب الحروب الخاصة للبارونات الأقطاعيين ، علاوة على ذلك كانت كتلة الفلاحين تعيش بصورة طبيعية في حالة اعتماد دائم ومضجر على سادتهم الكنسيين أو المدنيين، وكان العديد من الفلاحين أرقاء حملوا عبوديتهم في دمانهم ونقلوها من جيل الى جيل ، عبيد مملوكون بالمولد لارث سيّد ، وكان الشعور أن تلك حالة متدنية فريدة . ولكن وجدت أيضا حالات أخرى ، اذا كانت اقل ازلالا فانها كانت مثل ذلك تقريبا صعبة التحمل بدرجة العبودية نفسها ، وخلال القرون الطويلة من الأعمال الحربية المتكررة الحدوث باستمرار ، عندما لا توجد حكومة مركزية فعالة ، كان معظم

مالكي الأراضي الصغار يجدون لتسليم أراضيهم للسيد المحلي الذي كان مع زمرته من الخدم المزودين بالخيل ، الوحيد الذي في موقع تقديم الحماية ، وكان أبناء هؤلاء الناس أيضا يعتمدون على سيد ، ومع أن اعتمادهم كان ينظم بعقد إرثي دائم فإنه لم يكن بالضرورة أقل إرهاقا من العبودية ، وفي عصر كانت فيه أكثر الضمانات فعالية للاستقلال الشخصي تقوم على ملكية الأرض والقدرة على حمل السلاح ، كان الفلاحون في وضع غير موات ، حيث إن النبلاء فقط هم الذين كانوا قادرين على تأمين السلاح ، وكانت معظم الأراضي في المناطق الزراعية مملوكة إما للنبلاء أو للكنييسة.

وكانت الأرض - اللازمة للمعيشة - يجب أن تستأجر ، ويجب كسب الحماية لها ، وهذا كان يعني أن معظم الفلاحين كان عليهم أن يزودوا سادتهم بقدر كبير من خدمات العمل ، والواجبات المنتظمة وبغرامات خاصة وأتاوات.

وباعتراف الجميع كانت ظروف حياة الفلاح ، مختلفة ومتنوعة كثيرا ونسبة القيد والحرية بين السكان من الفلاحين كانت تختلف بدرجة كبيرة من قرن لقرن ومن منطقة لأخرى ، ومرة أخرى بين هاتين الزمرتين ، كان يوجد تنوع غير محدود في الأوضاع الشرعية والقضائية وفي الرخاء ، حتى بين سكان القرية الواحدة كان يوجد عدم مساواة كبيرة (ص ٥٥) ولكن عندما الحقت كل إضافة بهذه التعقيدات يبقى صحيحا أن الفقر والصعوبات وغالبا عدم الاستقلال القسري كانوا كافيين بحد ذاتهم لتوليد الالفية الطبيعية ، وكان لدى العبيد لهفة إلى الهروب ، وكانت هناك جهود متكررة من جانب المجتمعات الفلاحية لانتزاع الحقوق وثورات متقطعة ، وكانت مثل هذه الأشياء مألوفة بدرجة كبيرة كافية في حياة كثير من الضياع والمزارع ، ولكن لم يكن كثيرا ممكنا تحريض الفلاحين المستوطنين لتوظيفهم في السعي وراء الالفية ، وإذا فعلوا فإن ذلك كان إما بسبب أنهم تورطوا في حركة كبيرة نشأت في طبقة مختلفة تماما ، أو

ان طريقتهم التقليدية في الحياة أصبحت مستحيلة او - وهو ما كان الحالة الأكثر شيوعا - لاجتماع هذين السببين.

ومن الممكن رؤية لماذا على الرغم من كل الفقر والصعوبات وانعدام الاستقلال ، كان المجتمع الزراعي للعصور الوسطى الأولى - وفي العصور الوسطى المتأخرة أيضا في كثير من المناطق - نسبيا غير مرتبط بنضال المحرومين من المزايا من المؤمنين بالآخرويات ، وإلى مدى يصعب المبالغة فيه ، كانت حياة الفلاحين تستمر وتتشكل بالعادة والروتين الكوموني ، وفي السهول الشمالية الواسعة كان الفلاحون عادة يتجمعون معا في القرى ، وكان سكان القرى يتبعون نهجا زراعيًا تطور بشكل جماعي في القرية ، وكانت رقع الأرض متجاورة ومتشابكة في الحقول المكشوفة ، وفي الفلاحة والبذر والحصاد لا بد أنهم كثيرا ما كانوا يعملون كفريق ، وكان لكل فلاح الحق في استعمال « الأرض المشاعة » إلى مدى مفروض ، وكانت المشاشية ترعى هناك معا ، والعلاقات الاجتماعية ضمن القرية كانت تنظمها المعايير التي مع أنها كانت تختلف من قرية لأخرى كان لها دائما قدسية التقاليد وكانت دائما تعتبر غير قابلة للانتهاك ، وكان هذا صحيحا ليس فقط في العلاقات بين القرى نفسها بل أيضا بين كل قروي وسيدته ... وخلال الصراعات الطويلة بين المصالح المتضاربة طورت كل ضيعة قوانينها الخاصة التي ما أن كانت تترسخ بالاستعمال حتى فرضت الحقوق والالتزامات لكل فرد ، ولهذه العادات كان السيد نفسه في الضيع يخضع لها ، وكان الفلاحون عادة يقظين لضمان أنه كان بالفعل يلتزم بها ، وكان من الممكن أن يكون الفلاحون مصممين جدا في الدفاع عن حقوقهم التقليدية وحتى زيادتها في المناسبات ، وكان بإمكانهم التصميم ، لأن السكان كانوا متناثرين والعمل مطلوب بكثرة ، وقد أعطاهم هذا ميزة كانت الى حد ما توازن التركيز في ملكية الأراضي والقرى المسلحة في أيدي ساداتهم (ص ٥٦) وكننتيجة لم يكن نظام الوحدات الادارية في التنظيم الريفي بأي شكل نظاما للاستثمار غير المنضبط العمل .

فإذا كانت العادة تلزم الفلاحين بتقديم الواجبات و الخدمات فإنها أيضا كانت تثبت المقادير ، وبالنسبة لمعظم الفلاحين كانت توفر على الأقل الأمن الأساسي الذي كان ينبع من الاستئجار المضمون والموروث لقطعة الأرض .

وكان وضع الفلاح في المجتمع الزراعي القديم مدعما كثيرا أيضا بحقيقة أنه - كالنبيل تماما - كان يمضي حياته مرتبطا بإحكام بمجموعة من الأقرباء - وكانت الأسرة الكبيرة التي ينتمي إليها الفلاح تتألف من أقارب الدم من طرف الذكر أو الأنثى وزوجاتهم وأزواجهم وكانوا كلهم مرتبطون معا بروابطهم مع رئيس المجموعة - الأب (أو اذا انعدم الأم) - الفرع الرئيسي في العائلة ، وكثيرا ما كانت مجموعة النسب هذه يعترف بها رسميا كمستأجر للملكية الفلاحية ، التي بقيت راسخة فيها منوطة بها طالما بقيت المجموعة ، ومثل هذه العائلة كانت تشترك في القدر نفسه والنار والرغيف ، والعمل في الحقول غير المجزأة نفسها ، وتتأصل في قطعة الأرض نفسها أجيالا ، وكانت تعتبر وحدة اجتماعية شديدة التماسك ، حتى وان كانت هي نفسها أحيانا تتمزق بالشجار الداخلي المرير .

وليس هناك شك في أن الفلاح الفرد قد ربح الكثير من انتمائه لمثل هذه المجموعة . وايا كانت حاجته و حتى لو لم يعد يعيش مع العائلة ، فإنه كان يستطيع دائما ان يطلب العون من أقربائه ، وأن يطمئن إلى أنه سيناله . فإذا كانت روابط الدم مقيدة فهي أيضا تدعم كل فرد .

وكانت الشبكة الاجتماعية التي كان الفلاح يولد فيها قوية جدا ، وكانت تعتبر مضمونة حتى أنها كانت تحول دون أي انحراف جذري ، وطالما أن الشبكة بقيت سليمة كان الفلاحون يتمتعون ليس فقط بأمن مادي مؤكد بل أيضا - وهو أكثر علاقة - بشعور مؤكد بالأمان ، وهو ضمان أساسي لم يتمكن الفقر المستمر و لا الخطر المحيق من حين لآخر من تدميره ، وعلاوة على ذلك إن مثل تلك

الصعوبات نفسها كانت مضمونة كجزء من حالة من الشؤون التي بدأ أنها تسود منذ الأبد ، وكانت الأفاق الاجتماعية والاقتصادية ضيقة بقدر ضيق الأفاق الجغرافية نفسها ، ولم يكن الاتصال مع العالم الواسع وراء حدود الضيقة ضعيفا فحسب بل إن مجرد التفكير في أي تحول أساسي في المجتمع نادرا ما كان متصورا ، وفي اقتصاد كان بدأيا بشكل موحد ، حيث لم يكن أحد شديد الثراء ، لم يكن هناك شيء يثير احتياجات جديدة ، وبالتأكيد لا شيء مما يمكن أن يثير الإنسان لتضخيم تخيلاته عن الثروة والقوة، وبدأ وضع الأمور هذا يتغير عندما - منذ القرن الحادي عشر أصبحت منطقة أخرى في حالة من السلام تكفي لكي يتزايد السكان و تتطور التجارة ، ووقعت المناطق الأولى التي حدث فيها ذلك جزئيا في الأراضي الفرنسية وجزئيا في الأراضي الألمانية، وفي القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر وفي منطقة تمتد تقريبا من السوم الى الراين وتتركز على الامارة العظيمة التي كان كونتات فلاندرز يحكمونها بحزم وكفاءة فريدين ، وازداد السكان بسرعة ، وفي القرن الحادي عشر كان شمال شرق فرنسا ، والبلاد المنخفضة ووادي الراين بالفعل مناطق تحمل من السكان فوق ما يمكن للنظام الزراعي التقليدي أن يتحمل ، وبدأ كثير من الفلاحين في استصلاح اراض أخذوا يستخلصونها من البحر والسمبخت والغابات أو الهجرة في اتجاه الشرق للاشتراك في عملية الاستعمار الألماني للأراضي التي كانت حتى ذلك الحين يسكنها السلاف ، وبهؤلاء الرواد سارت الأمور بشكل عام سيرا حسنا بدرجة كافية ، ولكن الكثيرون بقوا بلا أملاك وكانت ملكياتهم أصغر من أن تكفي لاعالتهم ، وكان على هؤلاء أن يتدبروا أمرهم بقدر ما يستطيعون ، ومضى بعض هؤلاء السكان الفاضلين ليشكلوا طبقة العمال الكادحين الريفيين (البروليتاريا) في حين تدفق بعضهم على المراكز التجارية والصناعية وافرزوا بروليتاريا مدنية .

وأعطى الفايكنغ الذين جلبوا الخراب الى كثير من أجزاء أوروبا، اعطوا الزخم المؤثر الأول لتطوير الصناعة في وحول

في الضيعة ، وكان المهاجر الفقير المعدم ذو الميل الى الصناعة ربما ينتهي بأن يصبح تاجرا غنيا ، وحتى بين الحرفيين تطور الذين انتجوا من أجل السوق المحلي في الجمعيات الحرفية والاتحادات التي حققت كثيرا من الأعمال التي حققها مجتمع القرية وجمعيات النسب للفلاحين ، وفعلت ذلك بأرباح أكبر بكثير ، ومع توسع الآفاق الاجتماعية والاقتصادية توقفت الشدائد والفقر والتبعية عن الظهور كمصير لا مفر منه للناس العاديين .

ومع ذلك كان هناك العديد ممن اكتفوا بمجرد تغيير متطلباتهم بمتطلبات جديدة دون أن يكونوا قادرين على تحقيقها ، وفيهم كان من اثار لديهم مشهد الثروة التي لم يكونوا يحلمون بها في قرون سالفة شعورا بالمرارة والاحباط . وفي المناطق المكتظة بالسكان ، المتمدنة نسبيا والمصنعة ، كان هناك اناس عديدون يعيشون على هامش المجتمع ، وفي حالة من عدم الأمان مزمنة ، ولم تكن صناعتهم أبدا حتى في أفضل الأزمات قادرة على امتصاص كل الفائض من السكان ، وتزاحم المتسولون في كل موقع سوق ، وكانوا يتجولون في جماعات في شوارع المدن وعلى الطرقات بين مدينة وأخرى ، وأصبح العديد منهم مرتزقة ، ولكن في تلك الأيام التي كانت فيها الحملات قصيرة ، كانت جيوش المرتزقة تسرح باستمرار ، وأصبحت كلمة برابانسون تعني عصابت الغزو والسلب للجنود غير المستخدمين من الذين يبحثون عن الحظ والذين كانوا دائما يأتون من برابانت والأراضي المجاورة ليخربوا اقاليم كاملة في فرنسا . وحتى بين الحرفيين المستخدمين كان العديد منهم يجد نفسه أكثر عجزا عن الدفاع عن النفس من فلاح الضياع .

وصحيح بالطبع أن صناعة العصور الوسطى لا يمكن أن تقارن سواء في درجة العقلانية والموضوعية أو التوازن المحض مع المشاريع الكبيرة التي قدر لها أن تغير البنية الاجتماعية لأوروبا في القرن التاسع عشر، انها لم تكن تتكون ببساطة من ورش صغيرة كان المعلم « نفسه فيها رجلا ذا وسائل متواضعة وبلاطموح

كبير ، ويمارس مراقبة أبوية خيرة على نحو ثلاثة أو أربعة مساعدين، ويشكل مع الصبية المتدربين على الحرفة جماعة عائلية تقريبا ، فهذه الصورة المألوفة صالحة فقط للصناعات التي كانت تنتج للسوق المحلي ، أما الصناعات التي كانت تنتج السلع للتصدير ، فكانت على العكس لها قاعدتها الاقتصادية في الصورة البدائية للرأسمالية غير المنضبطة وبشكل بارز في صناعات الأقمشة الكبيرة ، كان التجار الرأسماليون هم الذين يقدمون المواد الخام ، والذين يملكون المنتجات المنجزة ، والتي كانت تباع في السوق الدولية ، وكان موقف العمال حتى المهرة ، والنساجين والقصارين متقلقا مع أنه كان لديهم جمعيات، ولكن هذه لم تكن قادرة على حمايتهم كما كانت بالنسبة للحرفيين الذين كانوا يعملون في السوق المحلي ، وكان هؤلاء الرجال يعرفون أنه في أي لحظة يمكن لحرب أو هبوط في الأسعار تعويق التجارة ، وعندها فإنهم أيضا سيلقي بهم في الحشد اليائس من العاطلين عن العمل ، وذلك في حين كان العديد من العمال غير المهرة الذين يحصلون على أجور بائسة وليس لديهم أي وسائل أو جمعيات منظمة بشكل كامل تحت رحمة السوق.

وإضافة الى الفقر الذي يماثل في حجمه فقر أي فلاح ، كان العمال المتجولين والمؤقتين يعانون من الارتباك ، وهو أمر كان يندر أن يحدث مثله في نظام الضيعة ، فلم يكن هناك مجموعة من العادات يمكن أن يستثيروها في دفاعهم و لم يكن هناك نقص في العمالة يضيف وزنا الى إبداعاتهم ، وفوق كل شيء إنهم لم يكونوا مدعومين بشبكة من العلاقات الاجتماعية ، يمكن مقارنتها بتلك التي كانت تدعم الفلاح ، ومع أنه بالمعايير الحديثة تبدو أكبر مدن العصور الوسطى صغيرة ، ولا يمكن أن يكون هناك شك أنه في مجموعات المدن كتلك التي كانت توجد على سبيل المثال في فلاندرز ، والتي ضمت كل مدينة منها سكانا تراوح عددهم ما بين عشرين ألف الى خمسين ألفا كان الأسوا حقا يمكن أن ينحدر بطريقة غير ممكنة في قرية ربما كانت تضم خمسين أو ربما مائتي نسمة وإذا كانت

جماعات النسب في الطبقات العليا من سكان المدن ماتزال هامة ، فإنها في الطبقات الأولى قد تضاءلت حتى درجة التفاهة ، وبدأت الهجرات من المناطق الريفية المكتظة بالسكان الى المراكز الصناعية بالتمزق و انتهت بتمزيق العائلات الفلاحية الكبيرة ، و بين السكان الصناعيين من جانب آخر كان لدى جماعات النسب من أي حجم ملموس بالكاد الفرصة للتشكل جزئيا بسبب معدلات الوفاة المرتفعة ، حتى أن السكان يجب الى حد كبير ان يتجددوا من جديد كل جيل ، وجزئيا لأن العائلات الفقيرة كانت عاجزة عن الحصول على اكثر من فرصة صغيرة في مجال العيش في أي مكان.

وكان العمال المتجولون والعمال غير المهرة ، والفلاحون من غير المالكين أو الذين يملكون أرضا أصغر من أن تعيلهم والشحاذون ، والمشردون والعاطلون أولئك المهتمدون بالبطالة ، والعديد من الذين لسبب أو لآخر لم يكن بإمكانهم بلوغ مكانة مضمونة ، ومعترف بها ، لقد كان مثل هؤلاء الناس يعيشون في حالة من الاحباط المزمع والقلق ، ويشكلون اكثر العناصر تهورا وعدم استقرار في مجتمع القرون الوسطى ، وكل حدث يثير الاضطراب والفرع والاثارة.

وكل نوع من الثورة أو التمرد أو دعوة الى حملة أو فترة انقطاع في الحكم أو خلو للعرش أو الوباء ، أو المجاعة أو أي شيء يمزق روتين الحياة الاجتماعية ، كان يؤثر على هؤلاء الناس بحدة غريبة ، ويحدث ردود فعل ذات عنف غريب ، والطريقة الوحيدة التي كانوا يحاولون فيها التعامل مع ما زقهم المشترك كانت تشكيل مجموعة من المخلصين تحت زعامة واحد يدعي أنه المسيح وحيث كان يوجد فائض في السكان يعيش على هامش المجتمع ، توفر دوما الميل قويا لاتخاذ زعيم رجلا نصف ديني ، أو ربما راهب مرتد ، كان يفرض نفسه ، لا ببساطة كرجل مقدس ، بل كنبى ومخلص أو حتى كإله حي ، وعلى قوة الالهامات أو الوحي الذي يدعي بسببه أصلا الهيا ، كان هذا الزعيم المبعوث يقرر لأتباعه

مهمة جماعية ذات أبعاد كبيرة وأهمية تهز العالم ، وكان الاقتناع بضرورة هذه البعثة ، ويكون المبعوث مكلفا من الرب بتنفيذ مهمة استثنائية يزود المشوشين والمحبطين بأمل جديد وقدرات جديدة على الاحتمال ، ولم يعطهم ببساطة مكانا في العالم . بل مكانا فريدا لامعا، وكانت الأخوانيات من هذا النوع تشعر أنها نفسها صفة وضعت سرمديا بعيدا عن وفوق العناصر الفانية العادية ، وتشارك في المزايا الاعجازية لزعيمها ، وتشارك أيضا في قدراته العجائبية ، وعلاوة على ذلك كانت البعثة التي اجتذبت بصورة أشد هذه الحشود من بين أكثر طبقات السكان عوزا - كانت بشكل طبيعي وكاف - بعثة ترمي لأن تتأوج بتحول كامل للمجتمع . وفي التخيلات الأخروية التي ورثوها من الماضي السحيق والعالم المنسي للمسيحية الأولى ، وجد هؤلاء الناس أسطورة اجتماعية مكيفة بشكل أكثر اكتمالا مع متطلباتهم، وقدر لهذه العملية التي بعد حدوثها الأول ، في المنطقة بين السوم والراين ، أن تحدث في قرون متأخرة في جنوب ووسط المانيا ، وحتى أبعد ، في هولندا ووسطاليا .

وفي كل حالة كانت تحدث في ظروف متماثلة عندما كان السكان يتزايدون ويتحولون الى الصناعة كانت الروابط الاجتماعية التقليدية تضعف أو تتحطم والفجوة بين الأغنياء والفقراء تتحول الى هوة ، ثم في كل هذه المناطق بدورها كان الشعور الجماعي بالعجز والقلق والحسد يفرغ نفسه في الحاح مسعور ليضرب غير الاتقياء - وبذلك تتشكل من المعاناة النازلة والمعاناة المحتملة ، تلك المملكة النهائية ، حيث يتجمع القديسون حول الملاذ العظيم ، وفي شخص مسيحيهم ، حيث يتمتعون بالراحة وبالثروة والأمن والقوة الى الأبد.

الفقراء في الحملات الصليبية الأولى :

شهد نصف القرن الذي ظهر فيه تانشيليم أوف انتويرب و آيون أوف بريتاني (ص ٦١) شهد أيضا الانفجارات الأولى لما يمكن أن

يدعوه المرء دون تحفظ مسيحاوية الفقراء . وقد هيأت الحملتان الصليبيتان الأولى في ١٠٩٦ والثانية في ١١٤٦ الظروف العامة لذلك .

عندما استدعى البابا أوربان الثاني فرسان العالم المسيحي للاشتراك في الحملة الصليبية أطلق بين الحشود الآمال والكراهية التي كانت تعبر عن نفسها بطرق غريبة تماما عن أهداف السياسة البابوية ، وكان الهدف الرئيسي لمناشدة أوربان الشهيرة في كليرمونت في ١٠٩٥ تزويد بيزنطة بالتعزيزات التي احتاجت إليها من أجل طرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، لأنه كان يأمل ان تعترف الكنيسة الشرقية بالمقابل بسيادة روما ، حتى تستعاد الوحدة النصرانية ، وفي المقام الثاني كان معنيا بأن يشير الى نبل موطنه فرنسا خاصة ، وأن يوجد مخرجا بديلا للطاقت الحربية التي كانت ماتزال تجلب الخراب باستمرار للأرض ، وكانت اللحظة مناسبة لأن مجتمع كليرمونت كان معنيا بدرجة كبيرة بهدنة الرب ، ذلك الجهاز الساذج الذي حاولت الكنيسة على مدى نصف قرن ان تحده من الأعمال الحربية الاقطاعية ، واطافة الى الاكليروس كان عددا كبيرا من النبلاء الأقل شأننا قد جاء كليرمونت وقدم أوربان للذين سيشترون في الحروب الصليبية مكافآت مؤثرة، فالفارس الذي يأخذ الصليب بمقصد ورج سيكسب الغفران من العقاب عن خطاياها العارضة جميعها ، واذ مات في المعركة سينال المغفرة عن كل خطاياهم وستكون هناك جوائز مادية اضافة الى الجوائز الروحية ، ولم يكن الاكتظاظ بالسكان قاصرا على الفلاحين ، وأحد الأسباب للحروب الدائمة بين النبلاء كان النقص الحقيقي في الأرض، وكثيرا ما كان الأبناء الأصغر بلا ارث بالمرّة ، ولم يكن لديهم خيار سوى البحث عن الحظ ، وطبقا لاحدى الروايات كان أوربان نفسه قد قارن بين الفقر والعوز الفعلي لكثير من النبلاء ، والرشاء الذي سيتمتعون به عندما سيستولون على الاقطاعات الجميلة الجديدة في الأراضي الجنوبية ، وسواء فعل ذلك أم لم يفعل ، كان هذا بالتأكيد اعتبار له وزنه الراجح لدى الكثير من

الصليبين ، ومع ذلك من الواضح انه كان يجري بالفعل بين الاساقفة والكهنة النبلاء ، الذين سمعوا مناشدة واغراء اوربان في كليرمونت شيء ما لم يكن ببساطة توقعاً لكسب فردي سواء اكان ماديا ام روحيا ، وبينما كان المجلس يستمع كانت تكتسح انفعالات القوة الغامرة ، وصاح الالوف في صوت واحد ديوسي لافولت - « إنها إرادة الرب » وهم محدثدون حول البسبا راعين بين يديه يلتمسون الأذن بالاشتراك في الحرب المقدسة ، وخر احد الكرادلة على ركبتيه وتلا « الكونفتيوز » (صلاة الاعتراف) باسم الجمع كله ، وبينما كانوا يرددونها وراءه انفجر الكثير بالبكاء واصيب العديد برعشة تشنجية ، ولبرهة وجيزة هيمن على الاجتماع ، الذي سادت فيه الارستقراطية ، جومن الحماس الجماعي ، ومثل ذلك أصبح طبيعيا في الحالات الطارئة التي حدثت فيما بعد للناس العاديين .

ذلك ان مناشدة كليرمونت كانت البداية فقط لهياج تلقفه على الفور عدد كبير من الوعاظ ، واستمر التبشير بالحملة الصليبية بين النبلاء من قبل اوربان نفسه الذي أمضى شهورا عدة يسافر في انحاء فرنسا لهذه الغاية ، وبوساطة الاساقفة الذين عادوا من كليرمونت الى أبرشياتهم ، وقد تم الوعظ بها أيضا للناس العاديين بوساطة عدد من المتنبيين ، وهم اناس مع أنهم كانوا غير مزودين بأي سلطة رسمية كانت لديهم الهيبة التي كانت تحيط دائما بالزاهدين من صانعي المعجزات ، وأشهر هؤلاء كان بطرس الناسك ، وولد بطرس قرب امينز وأمضى حياة زاهدة صارمة ، في البداية كراهب ثم كناسك ، وكان يسمير حافي القدمين ، ولم يمس اللحم أو النبيذ قط ، وكان رجلا ضئيلا نحिला ذا لحية طويلة رمادية ، له حضور أسر ، وبلاغة عظيمة ، حتى أنه نقل عن واحد كان يعرفه ، كانت كل كلمة أو فعل منه تبدو نصف الهية ، وقد مارس على الجماهير ابهارا وسحرا لايقاوم ، وكان الناس يحدثشون ويتدافعون حوله ويجهدون لانتزاع شعرة واحدة من الأتان التي كان يركبها ليدخروها كتذكار أثري مقدس ، وقد تكاثرت الاساطير حول قصة

حياته ، وقبل أن يتكلم البابا قيل كان بطرس في القدس ، وفي كذيسة القيامة حيث الضريح المقدس ظهر له المسيح وأعطاه رسالة مفوضا إياه باستدعاء الحملة الصليبية ، ويبدو أن بطرس قد أسهم في الأسطورة بحمل الرسالة السماوية معه أينما وعظ ، وكان نجاحه كداعية ضخما ، وبينما كان يمر في شمال فرنسا قفز جيش من الصليبيين الى الوجود ، وأسرع الناس الى بيع ممتلكاتهم لشراء الأسلحة وعدة السفر ، ثم بعدما لم يعد لديهم أي وسيلة للمعيشة بدأوا يرحلون ، وفي آذار ١٠٩٦ م قبل أن تصبح الحملة الصليبية الرسمية للبارونات جاهزة بأربعة شهور عبر بطرس من الأراضي الفرنسية الى الألمانية على رأس الجماعة التي الهمها ، وفي الوقت نفسه كانت جماعات أخرى تتشكل حول قادة آخرين في شمال فرنسا ، وفلاندرز وعلى طول الراين.

وكان لابد للجيش الذي تصوره البابا أن يتألف من الفرسان وتوابعهم ، وكلهم مدربون على الأعمال الحربية ومجهزون بشكل كامل ، وأعد معظم النبلاء الذين استجابوا لدعوات البابا أنفسهم في الواقع باعتدال وبطريقة واقعية من أجل الحملة ومن جانب آخر ضمت الحشود التي استحضرت بمواعظ المتنبئين أناسا كان نقص مؤهلاتهم العسكرية يعادله فقط عنفهم واندفاعهم ، ولم يكن لديهم في الواقع سبب للتأخر بل الأسباب للتعجل ، وكان معظمهم فقراء جاءوا من المناطق المكتظة ، حيث كان قدر الفقراء انعدام الأمن الدائم علاوة على ذلك كانت الحياة في العقد «١٠٨٥-١٠٩٥» ، أقسى بكثير حتى من المعتاد ، وبشكل دقيق في شمال شرق فرنسا وألمانيا الغربية حيث كانت هناك سلسلة غير منقطعة تقريبا من الفيضانات والجفاف والمجاعات ، ومنذ ١٠٨٩ كان السكان يعيشون أيضا في رعب مستمر بصورة بغيضة ، وبشكل استثنائي بسبب الوباء الذي يمكن ان يضرب فجأة وبلا سبب ظاهر في المدينة أو القرية وبسبب الموت المكرب لغالبية السكان وكان رد فعل الجماهير على هذه الكوارث كالمعتاد . تجمع الناس جماعات تائبة متعبدة حول الناسكين والرجال المقدسين الآخرين ، والمباشرة بطلب الخلاص

الجماعي ، وقد أعطى الظهور المفاجئ للمتنبئين ، الذين يبشرون بالحملة الصليبية تلك الحشود المبتلاة الفرصة لتكوين جماعات خلاصية على مجال اوسع بكثير والهروب في الوقت نفسه من الاراضي التي أصبحت الحياة فيها لا تحتمل ، وأسرع الرجال والنساء على السواء بالانضمام الى الحركة الجديدة ، وكثيرا ما كانت عائلات بكاملها تتحرك معا مع الأطفال والمنقولات المنزلية محملة على عربات ، ومع تزايد الحشد كانوا يتضخمون بكل أنواع المغامرات الغريبة ، من الرهبان المرتدين الى النساء المتنكرات في مظهر الرجال مع العديد من اللصوص وقطاع الطرق.

وكانت الحملة الصليبية بالنسبة لتلك الحشود تعني شيئا مختلفا عما كانت تعنيه بالنسبة للبابا ، ولم يكن العامة كما دعاهم المؤرخون المعاصرون لهم مهتمين بدرجة كبيرة بمساعدة مسيحي بيزنطة ، ولكنهم كانوا عاطفيا مهتمين بالوصول الى القدس واحتلالها وسكناها ، فالمدينة التي كانت اقدس مدينة في العالم لدى المسيحيين ، كانت في أيدي المسلمين منذ نحو أربعة قرون ونصف القرن ، مع ان امكانية استردادها كانت على ما يبدو تشغل دورا صغيرا في خطة اوربان الأصلية ، ان هذا التوقع هو الذي سمم جماهير الفقراء ، لقد كانت الحملة الصليبية في عيونهم حقا قتاليا مسلحا ، بل اعظم واكثر أنواع الحج تصعبا ، ولقرون كان الحج الى الضريح المقدس يعتبر صورة تكفيرية فعالة فريدة ، وخلال القرن الحادي عشر كان مثل هذا الحج ينفذ جماعيا : فلم يعد التائبون يميلون الى السفر فرادى أو في جماعات صغيرة بل في فرق منظمة في تسلسل هرمي ولها قائد ، وأحيانا وبشكل ملحوظ في ١.٣٣ و ١.٦٤ كان الحج الجماعي يشمل الوفا عدة من الناس وفي ١.٣٣ على الأقل كان أول الذاهبين هم الفقراء (ص ٦٤) وكان بينهم بعض من ذهبوا بقصد البقاء في القدس حتى وفاتهم ، وفي الحملة الصليبية ايضا لم يكن لدى الفقراء وكثير منهم فكرة العودة مطلقا الى بيوتهم، لقد أرادوا ان يسترجعوا القدس من غير المسيحيين للاستيطان فيها وليحولوها الى مدينة

مسيحية ، وكل من شارك في الحملة الصليبية كان يرتدي صليبا مخطيا على رداءه الخارجي ، فكان أول شارة يضعها جيش في الفترة مابعد الازمنة الكلاسيكية ، والخطوة الأولى في اتجاه اللباس العسكري الموحد الحديث ، اما بالنسبة للفرسان فان هذا الصليب كان رمزا للانتصار المسيحي في حملة عسكرية قصيرة الأمد، وفكر الفقراء بالحري بعبارة « احمل الصليب واتبعني » وبالنسبة لهم كانت الحملة الصليبية فوق كل شيء، تشبها جماعيا بالمسيح ، وتضحية جماهيرية ستكافأ بتمجيد جماعي في القدس .

وقد استحوذت القدس على خيالهم لانها لم تكن مجرد مدينة ارضية بل بالأحرى رمزا لأمل كبير : ولقد كانت كذلك منذ بدأت المثل المسيحية للعبرانيين تأخذ شكلا في القرن الثامن ق.م ، ومن خلال فم اشعيا حرص الرب اليهود العبرانيين :

« ابتهجوا انتم بالقدس وافرحوا بها ... وستنهلون .

وتشبعون من صدور المواشي فيها بما تحلبونه وستسرون بوفرة بهائها ... انظروا ، سأنشر السلام عليها ... كالنهر ... ثم تنهلون وستحملون على جوانبها وستتأرجحون على ركبته ، مثل الذي تريحه امه ، هكذا ساريحكم وستستريحون في القدس »

وفي نبوءات فترة مابعد النفي وفي أشعار الرؤيا تم تصور المملكة المسيحية على أنها تتمركز في قدس مستقبلية تبنى بفخامة عظيمة ، وأخذت هذه التخيلات اليهودية جميعها لتعزيز الأهمية العظيمة المثيرة للعاطفة التي تملكها القدس في أي حال ، بالنسبة للمسيحي العصور الوسطى ، وعندما ألف أحد الرهبان بعد الحدث بجيل المناشدة التي تخيل أن أوربان قام بها في كليرمونت جعل البابا يتكلم عن المدينة المقدسة لعلها ببساطة المكان المعد للشهرة الدائمة بمجيء المسيح والامه ، وصعوده إلى السماء بل أيضا « كسرة للعالم » و « الأرض المثمرة التي تعلو فوق الأراضي الأخرى ، مثل

جنة أخرى للمباهج » و « الأرض الملكية الواقعة في مركز العالم » وهي الآن أسيرة تطلب العون ، وتتوق إلى التحرير ، وعلاوة على ذلك وحتى بالنسبة لعلماء اللاهوت كانت القدس أيضا « شخصية » أو رمزا لمدينة سماوية « مثل حجر ثمين جدا » قدر له كما جاء في سفر الرؤيا أن يحل محلها في آخر الزمان ، فلا عجب أن - كما لاحظ المعاصرون - تكونت في عقول الناس البسطاء فكرة أن القدس الأرضية قد أصبحت مشوشة ومختلطة بفكرة القدس السماوية ، حتى أصبحت المدينة الفلسطينية (ص ٦٥) نفسها تبدو عالما معجزا يزخر بالنعيم المادية والروحية كليهما ، ولا عجب أنه عندما سلكت جماهير الفقراء طريق الحج الطويل صرخ الأطفال عند كل مدينة وقلعة « أهذه هي القدس ؟ » و ذلك بينما كان يرى عالما في السماء مدينة خفية غامضة تهرع إليها الحشود .

وفي حين أنه في شمال فرنسا ، وفلاندرز ووادي الراين شكل الفقراء أنفسهم في فرق ذاتية الإدارة فإنهم في المناطق الأخرى المتمدنة بدرجة عالية والمكتظة بالسكان مثل بروفانس تدفقوا على جيش الكونت ، ريموند أوف طولوز، وكنتيجة فقد تطور في ذلك الجيش شعور بالبهجة كبير بالدرجة نفسها التي سادت في الجماعات التي اتبعت المتنبئين ، وبشكل متماثل في الشمال والجنوب اعتبر الفقراء الذين انضموا للحملة الصليبية أنفسهم صفوة الصليبيين ، وشعبا اختاره الله ، في حين أن البارونات لم يختاروا ، وعند اللحظة الحرجة في حصار أنطاكية حمل القديس أندروز أنباء سارة تفيد أن الحربة المقدسة كانت مدفونة في إحدى الكنائس في المدينة ، ويعود الفضل في ظهورها إلى فلاح بروفانسي فقير ، وعندما تردد الفلاح مدركا لوضعه الدوني في نقله الأخبار إلى القادة النبلاء ، أكد له القديس : « إن الرب قد اختاركم (فقراء الناس) من بين كل الناس ، كما تجمع سنابل القمح من وسط حقل من الشوفان ، لأنه بالجدارة وبنعمة الفضيلة فإنكم ستتخطون كل من كانوا قبلكم وكل من يأتي بعدكم بقدر مايتفوق الذهب على القضة » ويقتررب ريموند أوف أغويلرز الذي يحكي القصة ، أكثر

من غيره من المؤرخين في مشاطرة وجهة نظر الفقراء ، ويبدو طبيعيا بالنسبة له أنه عندما كان يقتل بعض الفقراء كان لابد من ظهور صلبان معجزة على لوح الكتف ، وعندما يتحدث عن العالة من الدهماء فإنه كان يفعل ذلك وهو يشعر دائما بخشمية أكيدة باعتبارهم مختارين من الرب .

ويأتي الشعور بالأهمية لدى الفقراء بشكل واضح أكثر من القصص الغريبة التي تمتزج فيها الأسطورة بالحقيقة ، التي تحكي عن الناس الذين كانوا يدعون « طفور » Tafurs « و هلك قسم كبير - يحتمل أن يكون القسم الأكبر - من الحملة الشعبية الصليبية أثناء رحلتها عبر أوروبا ، ولكن ما يكفي نجسا ليشكل في سورية وفلسطين جيشا من المشردين - الذي يبدو أن الكلمة الغامضة « طفور » تعنيه ، ولقد كان « الطفور » عصابة ضارية حافية الأقدام شعثناء تلبس ثيابا مهلهلة من الخيش تكسوها القذارة والقروح ، تعيش على جذور النباتات والأعشاب وأحيانا أيضا على جثث الأعداء المشوية ، وكانت تخرب تماما أي بلد تمر فيه ، ولفقرهم إلى درجة عدم القدرة على امتلاك سيوف أو رماح كانوا يستخدمون الهراوات المثقلة بالرصاص ، والعصي المدببة والسكاكين والبلط ، والمجارف والمعازق والعرادات ، وعندما كانوا يهاجمون في المعركة كانوا يصرون بأسنانهم كما لو أنهم كانوا (ص ٦٦) يقصدون أكل أعدائهم أحياء إلى جانب أكلهم أمواتا ، ومع أن المسلمين واجهوا البارونات الصليبيين بلا وجل ، فإنهم كانوا يرهبون الطفور وكانوا يسمونهم « غير فرنجة » « بل شياطين حية » .

وكان مؤرخو المسيحية أنفسهم - من الأكليروس أو الفرسان الذين كان اهتمامهم الرئيسي ينصب على أفعال الأمراء - في الوقت الذي كانوا يقرون فيه بفعالية الطفور في المعركة ، كانوا بوضوح ينظرون إليهم بريبة وارتباك ، ومع ذلك عندما يعود المرء إلى اللحمة

العامية المكتوبة من وجهة نظر الفقراء يجد أن الطفور قد صوروا
كأناس مقدسين « وأنهم أجدر من الفرسان بكثير » .

وعرض الطفور ولهم ملك يقال إنه كان فارسا نورمانديا تولى
عن حصانه وسلاحه ودرعه ، ليلبس الخيش ويحمل المنجل ، وعلى
الأقل في البداية كان زاهدا ، وكان الفقر بالنسبة له هو كل القيمة
الصوفية التي كانت لدى القديس فرانسيس وحوارييه ، ومن حين
لآخر كان ملك الطفور يفتش عن رجاله ، فإذا وجد مالا مع أحد منهم
كان يطرده من الجماعة ، ويرسله لشراء السلاح والالتحاق بالجيش
المحترف الذي يقوده البارونات ، في حين كان الذين يتنسكون
ويتخلون عن كل ممتلكاتهم عن إيمان راسخ يقبلون في
عضوية « الجماعة » ، أو الدوائر الداخلية للاتباع ، وكان الطفور
يعتقدون أنه بسبب فقرهم فقط هم أنفسهم قد قدر لهم أن يدخلوا
المدينة المقدسة « إن الأفقر سيأخذونها : وهذه علامة تظهر بوضوح
إن الرب لا يهتم بالوقحين الذين لا إيمان لهم » ، بيد أنه وإن استحق
الفقراء الجدارة بفقرهم ، لقد كانوا مسأى بالجشع وحب المال ،
والغنائم التي كان يستولى عليها من غير المسيحيين ، لم يكونوا
يشعرون بأنها تقلص مطالبهم من العطف الالهي ، بل الأحرى أن
تثبت حقيقة هذا العطف ، وبعد مناوشات ومصادمات ناجحة خارج
انطاكية . كان الفقراء البروفانسيين « يعدون فوق ظهور خيولهم
بين الخيام ليظهروا لرفاقهم أن فقرهم قد انتهى ، وارتدى آخرون
رداءين أو ثلاثة من الحرير ، وحمدوا الرب المانح للنصر والمعطي
للهدايا ، ومع قيادة ملك الطفور للهجوم الأخير على القدس كان
يصيح « أين الفقراء الذين يريدون المال ؟ ليأتوا معي ! ... فالיום
بعون الرب سأربح ما يكفي لتحميل بغال كثيرة ! » وفيما بعد عندما
كان المسلمون يحملون كنوزهم عند أسوار المدينة المستسلمة في
محاولة لاغراء المسيحيين بالارتداد إلى العراء يظهر أن الطفور
كانوا عاجزين عن كبح أنفسهم حيث أخذ ملكهم يصيح « هل نحن في
سجن ؟ إنهم يحضرون الكنوز ونحن لانجرؤ على أخذها ! ... ماذا
يهمني إذا مت ؟ طالما كنت أفعل ما أريد ، وفيما هو - يدعو

القديس لازاروس - لازاروس الحكايات والأمثال الذي اتخذ منه فقراء العصور الوسطى راعيهم المقدس - قاد جماعته خارج المدينة إلى الكارثة ، وفي كل مدينة كان يستولى عليها ، نهب الطفور كل شيء وضعوا أيديهم عليه ، واغتصبوا المسلمات وقاموا بمذابح بلا قيود ولا تمييز ، ولم يكن لدى القادة الرسميين سلطة عليهم إطلاقا (ص ٦٧) وعندما احتج أمير انطاكية على اكل الطفور لحوم البشر ، لم يكن أمام الأمراء سوى الاقرار معتذرين « إننا جميعا معا لانستطيع كبح جماح ملك الطفور » ، وكان البارونات يبدون في الواقع خائفين نوعا ما من الطفور ، وكانوا يحرصون على حسن التسلح كلما اقتربوا منهم ، وهذا بلا ريبه كان حقيقة الأمر ، ولكن في القصص التي تروى من وجهة نظر الفقراء لم يكن الأمراء الكبار ينظرون إلى ملك الطفور بقلق شديد ، بقدر ما كانوا بذلة ، بل حتى باحترام ، وإننا نجد ملك الطفور يحدث البارونات المتمردين على مهاجمة القديس قائلا : « سادتي ما الذي نفعله ؟ إننا نؤخر هجومنا على هذه المدينة وعلى هذا العرق الشرير أكثر مما ينبغي ، إننا نتصرف كحجاج مزيفين ، لو بقي الأمر لي وللفقراء وحدهم ، فإن الوثنيين سيجدوننا أسوأ جيران لهم على الإطلاق » ! وتأثر الأمراء حتى أنهم طلبوا منه قيادة الهجوم الأول ، وعندما غطته الجراح حمل من ميدان المعركة ، وتجمعوا حوله قلقين ، ولكنهم أظهروا ملك الطفور على أنه أكثر من مجرد أقوى المحاربين ، فكثيرا ما ظهر مرتببا ارتباطا وثيقا بالمتبدين ، و في إحدى الروايات كان بطرس الناسك - و في أخرى أسقف خيالي - هو الذي حمل الحربة المقدسة وهو الشعار الذي اتخذته الفقراء ، وهو نفسه امتلك بوضوح صفة خارقة للطبيعة وضاعته فوق كل الأمراء ، وعندما - كما في القصة المكتوبة للفقراء - أصبح غودفري أوف بوليون ملكا على القديس اختار البارونات ملك الطفور باعتباره « الأعلى مقاما » ليقوم بالتتويج ، وقد قام بذلك بإعطاء غودفري غصنا من الأشواك كذكرى لتاج الشوك ، وقام غودفري بقبول البيعة واداء القسم باعتبار القديس اقطاعية من ملك الطفور والرب وحده .

ولشعورهم أنهم تحملوا ما يكفي تعجلوا العودة الى زوجاتهم وحقولهم ، ولكن ملك الطفور ما كان ليرى القدس مهجورة ، لذا ارتهن نفسه للبقاء مع جيش الفقراء ، لحماية الملك الجديد و مملكته ، وفي هذه الأحداث الخيالية الصرفة أصبح الملك الشحاذ رمزا للأمال الضخمة المفرطة التي حملت الدهماء والفقراء على مصاعب لا توصف نحو المدينة المقدسة.

وكان تحقيق هذا الأمل يتطلب التضحية البشرية على نطاق واسع ، ليس فقط بالنفس من قبل الصليبيين بل أيضا بذنبى غير المسيحيين ، مع أن البابا والأمراء ربما كانوا قد اعتزموا القيام بحملة بأهداف محدودة ، فإن الحملة في الواقع باتت ترمي باستمرار لأن تصبح كما أرادها العامة : حربا لـ «إبادة» أبناء العاهرات «عرق قاين» كما كان ملك الطفور يدعو المسلمين ، ولم يكن مجهولا بالنسبة للصليبيين أنهم كانوا يمسكون بفلاحي منطقة ما ويقدمون لهم خيارا بين التنصر فورا أو القتل (ص ٦٨) «وقد حققوا ما جعل الفرنجة يعودون وقد ملاهم الحبور» وقد أعقب سقوط القدس مذبحه عظيمة باستثناء الحاكم وحرسه ، الذين تدبروا أمر شراء حياتهم واصطحبوا إلى خارج المدينة ، وقتل كل المسلمين رجالا ونساء وأطفالا : «وخاضت الخيول في الدماء حتى الركب لا بل حتى اللجام بداخل المسجد الأقصى وحوله ، لقد كان حكما عادلا وعجيبا من الرب أن يتلقى المكان نفسه دماء أولئك الذين طالما حمل تجديدهم الى الرب» وبالنسبة ليهود القدس عندما التجأوا إلى معبدهم أحرق المبنى وأحرق الجميع أحياء.

وسار الصليبيون وهم يبكون من الفرح وينشدون أناشيد الحمد في مواكب الى كنيسة الضريح المقدس «أيها اليوم الجديد ، يوم جديد وابتهاج ، فرح جديد ودائم ... اليوم الذي سيشتهر في القرون القادمة حول معاناتنا ومصاعبنا الى حبور وبهجة ، ذاك يوم تأكيد المسيحية والقضاء على المسلمين والتجديد لايماننا» ولكن حفنة من المسلمين ظلوا أحياء : لقد التجأوا الى سطح المسجد الأقصى ،

ووعد الصليبي الشهير تا نكرد بالابقاء على حياتهم في مقابل فدية كبيرة ، واعطاهم علمه كجواز للمرور في امان ، ولكن تانكرد امكنه فقط أن يرقب في عجز غاضب الجنود العاديين وهم يتسلقون جدار المسجد ليقطعوا رأس كل رجل وامرأة سوى الذين القوا بأنفسهم الى حتفهم من فوق السقف » .

واذا أخذ المرء هذه الأحداث بعين الاعتبار يبدو طبيعيا بدرجة كافية أن أول مذبحه كبيرة لليهود الأوروبيين لا بد أنها حدثت أيضا خلال الحملة الأولى ، ولم يكن للجيش الصليبي الرسمي الذي تألف من البارونات واتباعهم يد في هذه المذبحه التي نفذت كلية بوساطة الجماعات التي تشكلت في ركاب المتنبيين ، وأوضح أحد المؤرخين أنه « مع قيام الحروب الصليبية ترسخ الإسلام على كل الجوانب وهوجم اليهود على الفور في المدن التي يعيشون فيها » ويقال أنه في البداية الأولى للهياج الصليبي منحت الجماعات اليهودية في روين والمدن الفرنسية الأخرى حق الخيار بين التحول الى المسيحية أو الذبح ، غير أن المدن الأسقفية على طول الراين قد شهدت أعنف الهجمات ، وهنا كما على طول جميع الطرق التجارية في غرب أوروبا كان التجار اليهود قد استتقروا منذ قرون وبسبب نفعهم الاقتصادي ، تمتعوا دائما بالعطف الخاص من رؤساء الأساقفة ، ولكن مع نهاية القرن الحادي عشر ، أدى التوتر في كل هذه المدن بين أهلها وساداتهم من الأكليروس إلى قيام اضطرابات اجتماعية عامة ، وكان جوا ثبت أنه مناسب للمتنبيين العائدين للحروب الصليبية كما ثبت أنه مناسب أيضا لتانزيميلم بعد ذلك بوقت قصير (ص ٦٩) .

وفي بداية أيار ١٠٩٦ خطط الصليبيون المعسكرون خارج سبيير لمهاجمة اليهود في معابدهم يوم السبت ، وأخفقوا في صنع هذا وكانوا فقط قادرين على قتل حفنة من اليهود في الشوارع ، وأوى الأسقف البقية في قصره وعاقب بعض القتلة ، و في ورمز كان اليهود أقل حظا ، وهنا أيضا لجأوا الى طلب حماية الأسقف والبرجوازيين

الموسرين ، ولكن احدا لم يكن قادرا على حمايتهم عندما وصل رجال من الحملة الصليبية الشعبية وقادوا اهل المدينة في هجوم على حسي اليهود ، ونهب المعبد كما نهبت البيوت وقتل كل شاغليها ممن رفضوا التعميد من البالغين ، اما بالنسبة للأطفال فقد قتل بعضهم واخذ بعضهم الآخر لتعميدهم وترتيبهم كمسيحيين ، والتجأ بعض اليهود الى قصر الأسقف، وعندما هوجم هذا أيضا عرض الأسقف عليهم التعميد وانقاذ ارواحهم ، ولكن الجماعة كلها فضلت الانتحار ، وكمجموع يقال ان نحو من ثمانمائة من اليهود هلكوا في ورمز .

وفي مينز حيث عاشت أكبر جماعة من اليهود في المانيا ، اخذت الأحداث الى حد كبير المجرى نفسه فهناك أيضا تمت حماية اليهود وفي البداية من قبل رئيس الأساقفة والمقدم المدني الأكبر ، وأكبر البرجوازيين ثراء ، ولكن في النهاية أجبرهم الصليبيون بتأكيد من اهل المدينة الأشد فقرا على الاختيار بين التعميد والموت ، وهرب رئيس الأساقفة وكل هيئته خوفا على حياتهم ، وهلك أكثر من الف يهودي ويهودية سواء بالانتحار أو على أيدي الصليبيين ، ومن مدن الراين تحركت فرقة من الصليبيين الى تريير والقى رئيس الأساقفة موعظة طلب فيها الأبقاء على اليهود ، ولكن بالنتيجة كان عليه هو نفسه أن يهرب من الكنيسة ، وهنا أيضا مع أن بعض اليهود قبلوا التعميد ، فإن الغالبية العظمى هلكت ، وتحرك الصليبيون الى متز حيث قتلوا المزيد من اليهود ، وعادوا في منتصف حزيران الى كولون ولجأت جماعات اليهود الى الاختباء في القرى المجاورة ولكنهم اكتشفوا من الصليبيين وذبحوا بالملئات ، وفي هذه الأثناء شقت فرق أخرى من الصليبيين طرقها في اتجاه الشرق ، وفرضت التعميد بالقوة على جماعات رجنسبرغ وبراغ ، وبشكل اجمالي يقدر عدد اليهود الذين هلكوا في شهري ايار وحزيران ١٠٩٦ م ما بين أربعة الاف الى ثمانية الاف .

و كانت هذه بداية تقاليد ، ففي سنة ١١٤٦ حين كان التحضير

لحملة الصليبية الثانية يجري من قبل الملك لويس السابع ونسبلاء فرنسا ، كان السكان في نورماندي وبيكاردي يقتلون اليهود ، وأثناء ذلك شق راهب مرتد يدعى رودلف طريقه من هينوت الى الراين حيث دعا الحشود الى الانضمام الى حملة صليبية شعبية والشروع بقتل اليهود ، وكما في زمان الحملة الصليبية الأولى كان الناس العاديين مدفوعين الى اليأس بفعل المجاعة ، وككل متنبىء ناجح (ص ٧٠) كان يعتقد أن رودلف يقوم بمعجزات ، وأنه مؤيد بالوحي السماوي ، واندفعت الجموع الجائعة اليه أفواجا ، وكانت المدن الأسقفية ما تزال تعيش في صراعاتها الداخلية المريرة - كولون ، متز ، ورمز سبيير وأيضا هذه المرة ستراسبورغ عندما مر فيها الصليبيون وورز برغ وقد ثبت أن هذه هي الأرض الأكثر خصوبة للهياب المعادي لليهود .

و منها انتشرت الحركة الى مدن كثيرة أخرى في المانيا وفرنسا ، ولجأ اليهود الى طلب الحماية كما فعلوا قبل ذلك بنصف قرن من الأساقفة والبورجوازيين الأثرياء ، و عمل هؤلاء ما بوسعهم للمساعدة ، و لكن الدهماء لم يكونوا ليرتدعوا بسهولة ، وفي كثير من المدن كان السكان على شفا عصيان علني مسلح وبدا أن كارثة شاملة أخرى أصبحت وشيكة النزول باليهود ، وعند هذه النقطة تدخل القديس برنارد وبكل ثقل هيبتة أصر على أن المذبحة يجب أن تتوقف .

وحتى القديس برنارد بكل سمعته الرائعة كرجل مقدس وصانع للعجائب كان بالكاد قادرا على لجم الغضب الشعبي فعندما واجهه رودلف في مينز ، وكراع لدير الرهبان طلب منه العودة الى ديره ، كان العوام قد أوشكوا على حمل السلاح لحماية المتنبىء ، وبعد ذلك كانت مذابح اليهود ستبقى سمة طبيعية للحملة الصليبية الشعبية تميزها عن حملات الفرسان الصليبيين ، و من الواضح بدرجة كافية لماذا كان الدهماء الفقراء يذهبون اليهود بكل حرية وهم يقتلونهم كما فعلوا بالنسبة للمسلمين ، مع أن النهب لم يكن هدفهم الرئيس

بالتأكيد ، إن حولية يهودية عبرية هي التي تسجل كيف أنه خلال الحملة الصليبية الثانية ناشد الصليبيون اليهود : « تعالوا إلينا حتى نصبح شعبا واحدا ».

ويبدو أنه ليس هناك شك في أن اليهود كان بإمكانهم دائما إنقاذ الأرواح والممتلكات بقبول التعميد ، و من جانب آخر قيل إن كل من قتل يهوديا رفض التعميد غفرت ذنوبه •

وكان هناك أولئك الذين شعروا أنه غير مثاب أبدا أن تطلع بحملة صليبية حتى تقتل واحدا من هذا القبيل ، وبعض تعليقات الصليبيين أنفسهم حول هذا قد حفظت ، من ذلك : « لقد شرعنا في السير في طريق طويل لمحاربة أعداء الرب في الشرق ، ونحن نشاهد أمام أم أعيننا أسوأ أعدائه ، اليهود ، إنه يجب التعامل مع هؤلاء وأولا » ومرة أخرى : « إنكم أبناء سلالة أولئك الذين قتلوا ربنا وصلبوه » وعلاوة على ذلك الرب نفسه قال : « سيأتي فجر اليوم عندما يقدم ابنائي ويثأروا لدمي »

«إننا اولاده وانها مهمتنا ان ننفذ ثأره منكم ، لأنكم أظهرتم عنادكم وكنتم مجدفين عليه لقد تخلى (الرب) عنكم وحول إشعاعه إلينا وجعلنا خاصته»

و هنا تتكلم بشكل جلي القناعة التي حاولت أن توجه الحملة الصليبية الأولى نحو القضاء على الاسلام .